يبدأ القول باللعنة ، وكلمة « لعنة » في مقالها الديني ترتبط بالخطيئة الأصلية . ولكن ما علاقة ضياع الوطن بالخطيئة الأصلية ؟ وهل يرجع الوطن بالصلاح واستئصال الشر ؟. مع ذلك فالذات الأخلاقية لا تخطىء سبيلها فهي لا تنجو من مجزرة إلا وتصل من جديد إلى مساحة القذارة و« الديدان » . أليس هناك كلمة أخرى غائبة في هذا المقال ؟. على أية حال من يبدأ بالموج ينتهي إلى التيه ، ومن يبدأ باللعنة يصل إلى الرجس والطهارة ، وفي تحديدات الرجس والطهارة تصبح السياسة شراً و« برقعاً مفضوحاً » ومصدراً للعذاب . ولكن كيف يود « وديع » أن يرجع إلى الأرض « التي تسكنه » ؟ .

المقال الأخلاقي هو مقال الذات الباحثة عن حل فردي وسبيل الذات المتفردة . وكيف لا يكون « وديع عساف » فريداً ومتوحداً ؟ وكيف لا يتعاطف مع الدكتور فالح المنتمي إلى ارستقراطية بائدة ؟. لكن الجواب لا يتلكأ فهو حاضر في تفرد « وديع » وخصوصيته اللامتناهية التي تجعله دائما « خارج القطيع » : « في الصميم نحن وحيدون . ص : ٢٧ » . في الصميم نحن وحيدون ، بهذه الجملة يلخص « وديع » وضعه وينتهي ، وينتهي معه الكثير من الأسئلة ، على أية حال فنحن نقرؤه ولا نراه ، ولا يمكن أن نراه لأن حضوره لا يجاوز جدران وهم خالقه . يبقى سؤال أخير . كيف يؤمن بالسلاح من كان في قراره وحيداً ومزدريا للسياسة وتفسخ العالم ؟. « لقد خيل إلي ، رغم تكتمه ، إنه يشارك في نشاط خاص يعمل على تحشيد فدائيين منتخبين وتدريبهم للتوغل وراء حدود الصهاينة . ص : ١٠٥ » . ألا يتنافى العمل الفدائي مع مفهوم الخطيئة ؟. أما أنا فلا يعنيني ألام الخطيئة شيء . ص ٤٧ » .

« وديع عساف » « بطل » أضاع وجهه وتميزه الوطني وعوضهما بتميز فردية جامحة ، لكن هذا التميز الفردي في وهمه يضيع في كونية زائفة ، والكونية الزائفة ليست إلا الوجه الآخر للتبعية أو التماثل الواهم بالحضارة الغربية ، تماثل من أضاع ذاته وبحث عنها في فضاء الغير فأضاعها من جديد .

عندما ندرس القول الأيدولوجي في رواية « السفينة » فإننا ندرس الأثر الأيدولوجي الناتج عن علاقاتها الفنية ، وهذا يعني بالضرورة التمييز بين العلاقة الفنية وأثرها الأيدولوجي . و« السفينة » عمل فني هام من حيث هي كل متجانس ومتناغم من العلاقات المتداخلة التي تحاول تجسيد فكرة الجمال والبحث عن تحقق الذات الانسانية ، وعلاقات هذه الرواية غنية خصبة ، يضاعف كل منها الآخر ، أي أنها علاقات تلد من علاقة ــ فكرة : الجمال : فالسفينة علاقة ، والبحر علاقة ، والموسيقى علاقة ، وكذلك حال الوطن والفلسطيني . فالفلسطيني يحايث الموج والموسيقى الوطن ، والسفينة والزمان ... وجملة هذه العلاقات الفنية تتحدد فيما بينها بأثر متبادل محكوم بالفكرة ــ المفتاح : الجمال . لذلك ووفقا لمنطق الرواية الداخلي لا يمكن للفلسطيني إلا أن يكون جميلا ولا يمكن لمعاناته إلا أن تكون على مستوى السفينة والقمر واللوحة .

« السفينة » كل مغلق من العلاقات ، وفضاء جمالي مكثف بذاته ، وعندما نقول كلا مغلقا نعني بذلك أننا ندرس الرواية ونقومها وفقا لاتساقها الداخلي وترابط علاقاتها دون أن نقارن بينها وبين نموذج واقع خارجها ، لأنها في ذاتها موضوعا أنتجه الخيال الروائي .